

البَيَّانُ

الجزء الخامس

السنة الاولى

— ١٨٩٧ سنة اول يوليو —

— اللغة والمصر —

(تابع لما في الجزء السابق)

على أنك لو طفت اليوم في جميع أنحاء البلاد التي كانت مباءة للعرب
ومرضاً لحضارتهم وفنونهم لم تكد تجد موضعاً تتوسم فيه آثار ذلك القديم
سوى الديار المصرية التي هي مستودع ذخائر اللّف وجمع شمل علومهم في
شمل بقاياهم والتي ان كان قد كُتب لهذه اللغة ان تستأنف البقاء مدة اخرى
فان مبعثها انما يكون من ناحيتها وعلى ايدي رجالها وان سبقهم الى احياء
رسومها بعض المجاورين لهم ممن اصطبغوا صبغة العرب وليسوا منهم في شيء
وشتان بين من يُعنى بالامر لضرورة أحوجته اليه ومن تكون فائدته له
وخسرانه عليه

وقد كان عُمِد في هذه العاصمة اعني مدينة القاهرة مُجْتَمِعٌ نُفُوِيٌّ تَطَلَّتْ
اليه أعناق الناطقين بالضاد من جميع الآفاق العربية وتوقع المتأدبون منه فوائد
جمة مما لم تبرز النفوس متطلعة اليه والاماني معقودة عليه فاعترض دون تلك
الثمرات ما عهد في اهل الشرق عامة والمصريين خاصة من وئاء الهمم وتخلّف

الثبات على حين لم يجروا في هذا الشوط إلا خطوات يسيرة ابانوا فيها عن رأي فطير وبضاعة مَرْجاة وصدرت الآمال عنهم كما وردت لم تظفر منهم بيلة بل تجرعت من اليأس ما زادها على غلتها غلة

ولا بأس ان نُلا في هذا المقام بطرف من تأريخ هذا المجتمع والكشف عن شيء من أعماله بياناً للغاية التي جعلوها نصب ابصارهم واستنهضوا لها همهم ثم المبلغ الذي ادركوه من ذلك والأمد الذي استولوا عليه منه لا نريد بذلك تسوئة لهم ولا غصاً منهم ولكن الإشارة الى اوجه التقصير فيما هموا به من هذا الامر الخطير والبحث في الخطة التي ينبغي سلوكها للوصول الى المقصد الذي تمثل لهم بعد ما اوضحنا من الحاجة الماسة اليه وما يترتب عليه من الفوائد التي أيسرها تدارك اللغة من السقوط ولحاقها بلغات الغابرين

لا جرم ان الامور انما تستتب بالرأي قبل العمل والحازم من اذا هم بفعل نظر في غايته قبل مبادئه حتى يكون مدخله فيه سديداً ومخرجه منه حميداً. فأول ما يؤخذ عليهم في امر هذا المجتمع انهم حصروا انتخاب المشتغلين به في عداد رجال مصر وحظروا ان يشاركهم فيه غيرهم من سائر الناطقين بهذا اللسان وهو امر قد خفي علينا وجه الحكمة فيه بل لم نجد لهم عذراً يخرجهم من المواخذة عليه. فانه ان كان ذلك عن مزيد اعتداد بانفسهم في كفاية هذا الامر حتى أدام الى ترك الاعتداد بغيرهم فهي السوءة التي لا يسترها احسان ولا يشفع فيها فضل ولا مزية بل هي السقطة التي تقضي وحدها على عملهم بالحبوط ومساعدتهم بالإخفاق. وذلك أن ما عقدوا العزم على إحداثه في هذا المجتمع من الزيادة والتبديل في الفاظ اللغة امر لا يستتب نفعه ولا يتحقق ثمرته إلا بأن يعم استعماله بين التكلين بها وتداوله السنتهم واقلامهم حتى

يُخْتَوُهُ بِأَصْلِ اللُّغَةِ وَيَعْتَبَرُوهُ فِي حِلَّةِ أَوْضَاعِهَا. وَعَلَى ذَلِكَ فَمَنْ لَمْ يَدْعُوهُ مِنْ
أَوَّلِكَ إِلَى مَشَارَسَتِهِمْ فِي الزَّأْيِ وَمَشَاطَرَتِهِمْ وَجِهَ الْحُكْمِ قَدْ دَعُوهُ بِلِسَانِ حَالِهِمْ
إِلَى مَتَابَعَتِهِمْ فَيَا يَرُونَ وَالنَّزُولِ عَلَى مَا يَحْكُونُ وَذَلِكَ أَمْرٌ وَلَا سَاطَةَ تَعَضُّدُهُ
لَا يَنْسَى إِلَّا بِرِضَى مَنْ يَدْعُوهُ إِلَيْهِ وَارْتِيَا حِرَ إِلَى مَوَاقِفَتِهِمْ عَلَيْهِ وَهِيَّاتُ أَنْ
يَرْضَى بِذَلِكَ مِنْهُمْ وَهُمْ قَدْ جَعَلُوا بِرِيدِهِمْ إِلَيْهِ مَا عَلِمَتْ مِنَ الْإِسْتِخْفَافِ
وَالْإِزْدِهَاءِ. وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ طَلَبًا لِلْآثَرَةِ وَالْإِنْفِرَادِ بِالْمُزِيَّةِ عَلَى غَيْرِهِمْ فَهُوَ أَمْرٌ
فِي غَيْرِ مَحَلٍّ أَيْضًا وَلَيْسَ مِنَ النَّصْفَةِ وَلَا السَّدَادِ فِي شَيْءٍ. وَذَلِكَ أَمَّا أَوَّلًا
فَلَأَنَّهُ لَوْ كَانَ الْأَمْرُ الَّذِي اجْتَمَعُوا لَهُ مِنْ شُؤْنٍ مَصْرُ الْخَاصَّةِ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ
لِأَحَدٍ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ وَلَا حَقٌّ الْمَطَالِبَةِ بِالْإِدْخَالِ مَعَهُمْ فِيهِ وَلَكِنَّهُ مِنَ الْأُمُورِ
الشَّائِعَةِ بَيْنَ جَمِيعِ الْأُمَّةِ عَلَى السَّوَاءِ لَيْسَ بَعْضُهَا أَحَقُّ بِهِ مِنْ بَعْضٍ فَافْتَرَادَهُمْ بِهِ
دُونَ سَائِرِهَا اسْتِبْدَادٌ لَا وَجْهَ لَهُ وَدَاعٍ إِلَى الْمَنَافَةِ وَالتَّخَاذُلِ وَقَضِ عُرْوَةُ
الْوَتَامِ. وَأَمَّا ثَانِيًا فَلَأَنَّ مَدَارَ الْعَمَلِ عَلَى سَدِّ مَا طَرَأَ عَلَى اللُّغَةِ مِنَ النِّقْصِ
وَوَضْعِ الْفَظِّ بِأَرْأَى الْمَعَانِي الَّتِي حَدَّثَتْ فِي الْأَعْصَرِ الْمُنَاقِرَةِ وَهَنَافَتِ مِنَ الْأَوْضَاعِ
وَالْمُصْطَلَحَاتِ مَا لَوْ جُمِعَتْ مَفْرَدَاتُهُ فِي كُلِّ فَنٍّ لَبَلَفَتْ أَنْ تَكُونَ مَجْدَاتٍ كَثِيرَةً.
وَلَا يَخْفَى أَنَّ هَذَا مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي لَا يَضْطَلَعُ بِهَا إِلَّا الْعَدَدُ الْعَدِيدُ فِي الزَّمَنِ
الْمُدِيدِ مِمَّا يَدْعُو إِلَى تَضَافُرِ الْأَيْدِي وَالِاسْتِكْثَارِ مِنَ الْعَامِلِينَ مَعَ مُوَاصَلَةِ الْجَدِّ
وَادِمَانِ الْإِسْتِغَالِ ثُمَّ هُوَ مَعَ ذَلِكَ رُبَّمَا أَتَى عَلَيْنَا قَرْنٌ بَتَامِهِ وَلَمْ يَبْلُغْ آخِرُهُ
بَلْ كَيْفَ يَبْلُغُهُ وَنَحْنُ لَا نَقْضِي إِلَى ذَلِكَ الزَّمَنِ حَتَّى يَكُونَ قَدْ حَدَثَ مِنْ تِلْكَ
الْأَوْضَاعِ أَضْعَافُ الْمَوْجُودِ الْآنَ. وَبَعْدُ فَإِنَّ قَلَّ هَذِهِ الْأَوْضَاعِ إِلَى لِقَاتِنَا لَا يَكْفِي
فِيهِ الْعِلْمُ بِقَوَائِنِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْإِحَاطَةُ بِالْفَظِّ مِنْهَا نَسْتَظْهِرُهَا مِنْ بَطْنِ الدِّقَاتِرِ
بَلْ مِنْ مَقْتَضَاهُ أَنْ يَكُونَ أَكْثَرُ الْمُشْتَغَلِينَ بِهِ مِنَ الْعَارِفِينَ بِاللُّغَاتِ الْمَنْقُولِ عَنْهَا

والمطلعين على علوم اربابها وصنائهم وسائر فنونهم ليكونوا على بينة من مواضع
 النص المشار اليها وتحقيق المعاني التي ينبغي وضع الفاظ لها مما يؤدّي به
 المقصود على وجهه وليس في مصر وحدها من هذه الطبقة الا رجال معدودون
 لا نحسبهم ان كانوا قد جعلوا لهم مكانا من هذا العمل كافين للاضطلاع به
 على طوله واتساعه وعلى ما يقتضيه من التفرغ وادمان النظر. قد كانوا
 والحالة هذه في اشد الحاجة الى ان يكون لهم في كل قطر أناس من امثال
 اولئك يؤازرونهم في العمل ويكونون اعوانا لهم على التبحر وكان يبق لهم من
 المزية التي حرصوا عليها انهم هم الشارعون في تأسيس هذا المجتمع والداعون اليه
 وان ارضهم ملئت اشعة ومنبثق انواره وهذا كاف في باب الآثرة وهو مما
 لا ينفسه عليهم منافس. وبالتالي فانهم لو نظروا نظرة في التاريخ لأدركتهم مثال
 ما هم فيه بما يسفر لهم عن وجه الرأي وينهج لهم سبيل العمل اذ ليست هذه
 أول مرة عبر فيها على الأمة مثل ذلك ودعت الحال الى الإحداث في اللغة
 وادخال شيء جديد بين اهائها. فكأن يعلم ما فعل المأمون حين عرّب كتب
 اليونان والفرس والسريان في الطب والحكمة والعلوم الطبيعية والرياضية وغيرها
 فانه لما لم يجد في الأمة من يضطلع باستخراج هذه الكتب الى العربية لم يتوقف
 عن استدعاء قوم من نسطرة العجم ليتولوا له قلوبا لم يستنكف من ذلك ولا
 أنف من بياحه من العلماء الذين حشدوا اليه من اطراف البلاد وناهيك بهم
 من كانوا ان يشاركهم في العمل. وقد افرد لهم مكانا في بلاطه ووزع تلك
 الاعمال بينهم على ما يحسنه كل فريق منهم ثم جعل لهم يوما في الاسبوع يجتمعون
 فيه وتعرض اعمال انعربين على علماء اللغة فيقرون منها ما وجدوه سديدا
 وينظرون في غيره مما لم يقع المعربون على وجهه فيصححونه

اما ما كان من ثمرات هذا المجتمع فزبدة ما اتصل بنا انهم عقدوا
ست او سبع جلسات استحدثوا فيها عشرين لفظة بازاء عشرين كلمة من الالفاظ
الاعجمية ولا بأس ان نذكر بعض هذه الالفاظ في هذا الموضع نتمه اسياقة البحث
فمنها قولهم مرحى وأينحى في مكان « يرافو » و برحى في مكان « في »
وهي كالت قال الأوليان منها لمن اصاب المرمى والثالثة لمن اخطأه فقلوها
الى مطلق معنى الاستحسان او الاستهجان . وقد تكلفوا في هذه الالفاظ على
ما نرى « واجدوا المرمى » بما لا حاجة اليه لوجود كثير في كلام العرب من
مشهور اللفظ ومأنوسه يعني عن اجتلاب هذه الكلمات ونقلها عن مواضعها .
فمن قولهم في الاستحسان أحسنت وأجدت وأبدعت والله درك والله انت والله
ابوك وما شاء الله كان وكذا والآفلا وما اشبه ذلك . ومن هذا القليل قولهم
يخرج وبه به وزه بكسر فسكون وهذه الاخيرة من مستدركات الزبيدي
على القاموس نقلاً عن الاغانى . ويقولون في التتميع سوة لفلان وقبحاله
وخزياله وتباله وأفيله ولاأباله وخيى الأبعد وخزي ولادررته ونحو ذلك
وكلها من الالفاظ الوافية بالمراد على خلوها مما في تلك من الغرابة وما في
بعضها من الاستهجان في السمع

ومنها قولهم عم صباحاً وعم مساءً في مقابلة « بونجور » و « بونسوار » وهما
بما لا داعي اليه ايضاً اذ لا أكثر من ألفاظ التحية عندنا فضلاً عن انهما من
قديم اللفظ الذي قد أميت استعماله منذ ازمان مديدة فلا يُقبلان في هذا العصر .
وبعد فلا يزيدهم علماً ان الذين يقولون بونجور وبونسوار ليس ذلك منهم عن
افتقار الى لفظ يرادفهما بالعربية فان اجبل العوام يقول في تحية الصباح نهارك
سعيد او صباحك الله بالخير مثلاً وفي تحية المساء ليلىك سعيدة او اسعد الله مساءك

ونحو ذلك . ولكن الداء الذي ارادوا علاجه بهاتين العبارتين ليس من الادواء التي تعالج من هذا الكتاب ولا التي ينفع فيها هذا الضرب من العقاقير انما علاجه تلقين قياتنا حب الوطن وتنشئتهم على عزّة النفس والاعتداد بجرمة الذات حتى لا تنسفل احوالهم الى التشبه بغيرهم ممن ليسوا بخير منهم احساباً ولا اشرف خلالاً وقد بقي من أعراض هذا الداء ما تجد استعمال هذه الالفاظ في جنبه سهلاً نسأل الله ان يلهمنا رشد انفسنا وهو ولي الهداية

ومنها قولهم غرة في موضع «نومرو» وهذه لا تخلو من غرابة فان كان القصد منها تعريب اللفظة اي تحويلها الى صيغة توافق الالبنية العربية فهو مما سبقتهم اليه العامة يقولون كم غرة هذا الثوب مثلاً . وان كان مرادهم ان الثمرة لفظه عربية بهذا المعنى فلا صحة له لان الثمرة في اللغة النكته في الشيء . تخالف لونه كما يرى في جلد الثمر مثلاً فكان الأولى ان يبحثوا عن لفظه عربية توافق المعنى والا فهدد كغيرها من الكلم التي كانوا يضعونها اتفاقاً من غير ان يطالبهم بها مطالب فلم يكن عليهم بأس من تركها وارجائها الى فتح جديد

ومنها الحراقة في تعريب «التوريد» قالوا وهي اسي الحراقة سفينة فيها مرام للنيران يرمى بها العدو في البحر ولا يخفى ان هذه ليست في شيء من التوريد اذ هو عبارة عن صندوق ونحوه من رقيق صفائح المعدن يحشى بالبارود ويرسل في قعر البحر حتى يصير تحت سفينة العدو ثم يفجر بناقض (زنبرك) او سلك كبريتي فتقذف السفينة صعداً . والتوريد في الاصل اسم لسلك كبريتي من لسه خدرت يده وتسميه العرب بالرعد وهو اللفظ الذي استعمله بعضهم في تعريب هذه الكلمة واعلمه أولى

ومنها الوشاح اختاروه للتعبير عن «الكوردون» الذي يتخذ للـسيف
 يجامع الهيئة على انه ليس تعريباً للفظـة الاعجمية اذ هي في الاصل عندهم بمعنى
 القوة من قوى الحبل ثم نقلوها وان لم يظهر وجه النقل الى هذا السيف من
 منسوج الحرير ونحوه تشده النساء على اوساطهن ويزين به رؤوسهن وتجمع به
 اطراف السجوف وكلل الأسرة ويتخذ منه نجاد السيف وغير ذلك والوشاح
 لا يصلح لشيء من هذه المذكورات الا للمعنى الاخير فهو اخص من اللفظة
 المعربة ومع ذلك فلا بأس باستعماله لهذا الموضع

ومنها الطنف لما يسمى «بالبلكون» الا انهم فسروه بالسقيفة التي تشرع
 فوق باب الدار وهي غير البلـكون على ان اللفظة اوسع مما ذكروا ويرادها
 ايضا الجناح وهو احسن لفظاً وأدل على المراد

ومنها الشجب لما يقال له عند العامة «شماعة» وهو بالافرنجية «بورت
 ماتو». وحسب الطريق بالحصبا مكان قولهم «وضع فيها المكدام». والمطاف
 والمطف لما يسمى «بالاطو» و«الباردسو» كذا من غير تعيين والأظهر أن ما
 اختاروه يوافق الاول واما الثاني فأليق ما يسمى به الدثار فان كان يتق به ماء
 المطر فهو المِطر والمِطرة

ومنها البهر بمعنى «الصالون» والتعاز بمعنى «الجواني» والبطاقة بمعنى
 «الكارت» والشرطي والجلواز بمعنى «البوليس» وهذه كلها مما سبقوا اليه
 وبقيت الفاظ آخر أرسلت من عفو الذاكرة ولم ينضجها الفكر فلا
 نطيل باستقصائها والكلام عليها. على انه منها يكن من امر هذه الكلمات فلم
 يكن من المتعين ان يكون كل ما يضعونه وارداً مورد الاصابة ولا ينبغي ان
 يتوقع مثل ذلك من اي قوم تعاطوا مثل هذا الامر الدقيق على ما يقتضيه

من الاحاطة وُبعد النظر وكثرة التنقيب في اعطاف الحافظة وبين تضاعيف
السطور ولا سيما ان تلك الألفاظ كانت تصدر من وضع الواحد ثم تُنشر بلا
بحث ولا تنقيح فلا عجب ان جاء بعضها مرعى للنقد . على أنهم لو مضوا على ما
بدأوا به من ذلك وأدمنوا الاشتغال بالبحث والتقيد لجاء فيما يضمنونه فوائد لا تُحصى
ولخدموا اللغة خدمة سنية كانت تردّها عليهم شكراً جزيلاً وذكرًا على الايام جميلاً
ولكنهم لم يلبثوا بعد وضع هذه الكلمات ان تشاغلوا بانشاد القصائد واللقاء
الخطب ثم ختم المجتمع على هذا القدر
ستأتي البقية

الصابئة

(عود الى ما في الجزء الثالث).

بناءً على تماضي بعض مشتركنا الكرام لما وعدنا به في آخر الفصل الذي
سبق لنا ايراده في تعريف الصابئة نعود الى بيان بعض عقائدهم وشعائر دينهم
على شرطنا من الايجاز والتخصيل فنقول

تعتقد الصابئة وجود اله واحد كائن بنفسه هو علة الكائنات باسرها
حيّ أزلي أبدي منزّه عن الهوى لا تناله الحواس ولا يفضي اليه مخلوق .
ويليه في المنزلة ثلاث مئة وستون شخصاً قد أوتوا ان يفعلوا افعال الآلهة الآ
أنهم ليسوا بآلهة ولا هم في عداد القديسين لانهم لم يكونوا بشراً قط ولا يُعدّون
في الملائكة وان كانوا صنفًا منهم لان منهم من يباشر أعمال الخلق كورودربوتو
وهوييل زيرو . وهم يعلمون كل شيء ويعرفون الغيب من المستقبلات ولكل
منهم في عالم النور ملكة يتولى امرها . أما أصل وجودهم فانهم ليسوا بخلقين
كغيرهم من الكائنات ولكن الله ناداهم باسمائهم فوجد كل منهم من تلقاء